الأنباء
الاحد 4 اغسطس 2013

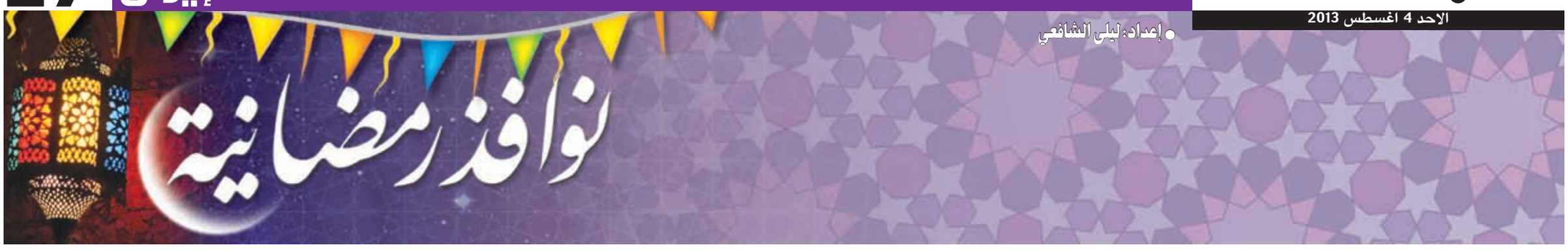

● إعداد: ليلى الشافعي

عودة إلى الله

توبة المهتدي

حكى المسعودي عن علي بن صالح قال: حضرت يوما من الايام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه الى النواحي فيما يتظلم به اليه ما استحسنته فأقبلت ارمقه ببصري اذا نظر في القصص، فإذا رفع طرفه الي اطرقت فكأنه علم ما في نفسي.

فقال لي: يا صالح، احسب ان في نفسك شيئا تحب ان تذكره.

قال: قلت: نعم يا امير المؤمنين.

فأمسك، فلما فرغ من جلوسه امر الا ابرح، ونهض فجلست جلوسا طويلا فقمت اليه، وهو على حصير الصلاة، فقال لي: اتحدثني بما في نفسك ام احدثك؟

فقلت: بل هو من امير المؤمنين احسن.

فقال: كأنني بك وقد استحسنت من مجلسنا، فقلت: اي خليفة خليفتنا، ان لم يكن يقول بقول ابيه، من القول بخلق القرآن.

فقال (اي الخليفة): قد كنت على ذلك برهة من الدهر، حتى اقدم علي الواثق، شيخ من اهل الفقه والحديث من اذنة من الثغر الشامي، مقيدا حسن الشيبة، فسلم غير هائب ودعا فأوجز فرأيت الحياء منه في حماليق عيني الواثق والرحمة عليه.

فقال: يا شيخ، اجب احمد بن ابي داود عما يسألك عنه.

فقال: يا امير المؤمنين، احمد يصغر، ويضعف، ويقل عند المناظرة فرأيت الواثق، وقد صار مكان الرحمة غضبا عليه.

فقال: ابو عبدالله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك؟

فقال: هون عليك يا امير المؤمنين، اتأذن لي في كلامه؟

فقال له الواثق: قد اذنت لك.

فأقبل الشيخ على احمد فقال: يا احمد الام دعوت الناس؟

فقال احمد: الى القول بخلق القرآن.

فقال له الشيخ: مقالتك هذه التي دعوت الناس اليها من القول بخلق القرآن اداخلة في الدين، فلا يكون الدين تاما الا بالقول بها؟

قال: نعم.

قال الشيخ: فرسول الله ﷺ دعا الناس اليها ام تركهم؟

قال: لا.

قال له: يعلمها ام لم يعلمها؟

قال: علمها.

قال: فلم دعوت الناس الى ما لم يدعهم رسول الله ﷺ وتركهم منه، فأمسك.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

ثم قال له: اخبرني يا احمد، قال الله تعالى في كتابه العزيز (اليوم اكملت لكم دينكم) الآية، فقلت انت: الدين لا يكون تاما الا بمقالتك بخلق القرآن، فالله تعالى صدق في تمامه وكماله، ام انت في نقصانك فأمسك.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثانية.

ثم قال بعد ساعة: اخبرني يا احمد، قال الله عز وجل (يأيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته)، فمقالتك هذه التي دعوت الناس اليها، فيما بلغه رسول الله ﷺ الى الامة ام لا؟ فأمسك، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين وهذه ثالثة.

ثم قال بعد ساعة: خبرني يا احمد لما علم رسول الله ﷺ مقالتك هذه التي دعوت الناس اليها اتسع له عن ان امسك عنهم ام لا.

قال احمد: بل تسع له ذلك.

فقال الشيخ: وكذلك لابي بكر، وكذلك لعمر، وكذلك لعثمان، كذلك لعلي رحمة الله عليهم؟

قال: نعم.

فصرف وجهه الى الواثق، وقال: يا امير المؤمنين، اذ لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولاصحابه فلا وسع الله علينا

فقال الواثق: نعم، لا وسع الله علينا، اذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وسع الله علينا.

ثم قال الواثق: اقطعوا قيوده فلما فكت جاذب عليها.

فقال الواثق: دعوه، ثم قال: يا شيخ لم جاذبت عليها؟

قال: لأني عقدت في نيتي ان اجاذب عليها، فإذا اخذتها اوصيت ان تجعل بين يدي كفني، ثم اقول: يا ربي سل عبدك لم قيدني ظلما وارتاع بي اهلي؟ فبكى الواثق والشيخ وكل من حضر.

ثم قال له: يا شيخ اجعلني في حل.

فقال: يا امير المؤمنين، ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حل اعظاما لرسول الله ﷺ ولقرابتك منه، فتهلل وجه الواثق وسر.

ثم قال له: اقم عندي آنس بك.

فقال له: مكاني في ذلك الثغر انفع، وانا شيخ كبير، ولي حاجة.

قال: سل ما بدا لك.

قال: يأذن امير المؤمنين في رجوعي الى الموضع الذي اخرجني منه هذا الظالم.

قال: قد اذنت لك وامر له بجائزة، فلم يقبلها.

قال المهتدي: فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة واحسب ايضا ان الواثق رجع عنها.

الرجال مواقف

عبدالله بن المبارك جاهد بنفسه في سبيل الله

في مدينة مرو سنة 118هـ ولد عبدالله بن المبارك ونشأ بين العلماء نشأة صالحة، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة العربية، وحفظ أحاديث كثيرة من أحاديث رسول الله ﷺ ودرس الفقه، وأنعم الله عليه بذاكرة قوية منذ صغره، فقد كان سريع الحفظ، لا ينسى ما يحفظه أبدا، يحكي أحد أقربائه واسمه صخر بن المبارك عن ذلك فيقول: كنا غلمانا في الكتاب، فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فأطال خطبته، فلما انتهى قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم، فقال: هاتها، أسمعنا ان كنت حفظتها كما تدعي، فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها ولم يخطئ في لفظ منها.

وفي الثالثة والعشرين من عمره رحل عبدالله إلى بلاد الإسلام الواسعة طلبا للعلم، فسافر إلى العراق والحجاز وغيرهما، والتقى بعدد كبير من علماء عصره فأخذ عنهم الحديث والفقه، فالتقى بالإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة النعمان، وكان عبدالله كلما ازداد علما، ازداد خوفا من الله وزهدا في الدنيا، وكان إذا قرأ كتابا من كتب الوعظ يذكره بالآخرة وبالجنة والنار، وبالوقوف بين يدي الله للحساب، بكى بكاء شديدا، واقشعر جسمه، وارتعدت فرائصه، ولا يكاد يتكلم أحد معه.

وكان عبدالله يكسب من تجارته مالا كثيرا، وها هو ذا يعطينا درسا بليغا في السلوك الصحيح للمسلم، وذلك حين أتاه أحد أصدقائه واسمه أبو علي وهو يظن أن الزهد والتجارة لا يجتمعان قائلا لعبدالله: أنت تأمرنا بالزهد، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيف ذا؟ فقال له عبدالله بن المبارك: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأكرم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به، وكان عبدالله بن المبارك لا يبخل على أحد بماله، بل كان كريما سخيا، ينفق على الفقراء والمساكين في كل سنة مائة ألف درهم.

وكان ينفق على طلاب العلم بسخاء وجود، حتى عوتب في ذلك فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم. وكان ابن المبارك يحب مكة، ويكثر من الخروج إليها للحج والزيارة، وكان كلما خرج من مكة قال:

بغض الحياة وخوف الله أخرجني
وبيع نفسي بما ليست له ثمنا
إني وزنت الذي يبقي ليعدله
ما ليس يبقي فلا والله ما اتزنا

وكان عبدالله بن المبارك يجاهد في سبيل الله بسيفه، حتى ان كثيرا ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه في الغزو، وكان يرى أن الجهاد فريضة يجب أن يؤديها المسلمون كما أداها الرسول ﷺ ويروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه الفضيل بن عياض يحثه على قتال الأعداء، ويدعوه إلى ترك البكاء عند البيت الحرام قائلا له:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
رهج السنابك والغبار الأطيب

وأحب عبدالله بن المبارك أحاديث رسول الله ﷺ حبا عظيما وكان لا يجيب أحدا يسأله عن حديث منها وهو يمشي، ويقول للسائل: «ليس هذا من توقير العلم»، وكان حفاظ الحديث في الكوفة إذا اختلفوا حول حديث قالوا: مروا بنا إلى هذا الطبيب نسأله (يقصدون عبدالله بن المبارك).

ولقد اجتمع نفر من أصحابه يوما وقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة والزهد والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والفروسية والشجاعة والشدة في بدنه، وترك الكلام فيما لا يعنيه.. حتى أجهدهم العد.

ولقد قدر الناس عبدالله بن المبارك وزادت مهابته لديهم على مهابة هارون الرشيد، روي أن هارون الرشيد قدم ذات يوم إلى «الرقة» فوجد الناس يجرون خلف عبدالله بن المبارك لينظروا إليه، ويسلموا عليه، فنظرت زوجة هارون الرشيد من شباك قصرها، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من خراسان قدم «الرقة» يقال له عبدالله بن المبارك، فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بالشرطة والأعوان.

وفي يوم من أيام شهر رمضان سنة 181هـ توفي عبدالله بن المبارك وهو راجع من الغزو، وكان عمره ثلاثة وستين عاما، ويقال: ان الرشيد لما بلغه موت عبدالله، قال: مات اليوم سيد العلماء.

روائع القصص

قصة الغلام المؤمن والراهب

يحكى ان غلاما كان يعيش في قصر الملك فأجبره الملك ان يذهب ليتعلم السحر من ساحر كافر، وهذا الساحر كان يعلمه السحر ليكون خليفة له في السحر، وكان الغلام الشاب الصغير يمر في طريقه على راهب يتعلم منه الايمان والتوحيد، وكان هذا حاله كل يوم، يمر على راهب يعلمه الدين، وساحر يعلمه الكفر برب العالمين، لكن الغلام مؤمن، صادق الايمان، انفضح امره، وانكشف سره، فهدده الملك بقوله: اقتلك او ترجع عن دينك؟ قال: لا ارجع عن ديني، فأرسله مع الجنود ليرمى به في البحر فيغرق، فلما توسط البحر وأرادوا ان يرموه في البحر، رفع يديه الى السماء، وقال: اللهم اكفنيهم بما شئت يا رب انت حسبي اتوكل عليك ان تكفيني هؤلاء الجنود، فاهتز المركب بالجنود وسقطوا وغرقوا جميعا ولم يبق الا الغلام. ثم رجع الغلام يمشي على رجليه الى الملك مرة اخرى، فخاف الملك منه، وقال: ما الذي جاء بك؟ اين الجنود؟ كيف لم تمت؟ فأخبره بالخبر، قال: الآن اقتلك حقيقة، وأرسله مع جنود آخرين ليرفعوه الى اعلى جبل ليرموه من هناك الى الارض فيهلك، والغلام مربوط مقيد، ولكنه يرسل معه الجنود خوفا ورعبا ووجلا، قال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فما ان انتهى من هذه الكلمات حتى اهتز الجبل، فيسقط الجنود ويبقى الغلام. الله اكبر، الله اكبر، الله اكبر، انها جنود من جنود الله، هذه الجبال، وتلك الرياح، وهذه البحار، كلها جنود لله جل في علاه: وما يعلم جنود ربك الا هو «المدثر: 31» سقط الجنود، ورجع الغلام يمشي على قدميه الى الملك، فلما دخل على الملك المرة الثالثة، خاف الملك منه واقتنع الملك ان في الامر شيئا غريبا، فقال له الغلام: اتريد ان تقتلني؟ قال: نعم. قال: اذا اردت قتلي فاسمع ما اقوله لك. قال: اذا اردت ان تقتلني فأنا ادلك، قال: اجمع الناس على صعيد واحد وعلى ارض واحدة، ثم اربطني في جذع شجرة، ثم خذ سهما من كنانتي، لا تأخذ اي سهم، وانما سهم من كنانتي انا، ثم انت الذي ترميني ليس غيرك، وقبل ان ترميني ترفع صوتك امام الناس وتقول: بسم الله رب الغلام، ثم ترميني بالسهم وانك بهذا قاتلي، وليس هناك طريقة اخرى لقتلي الا هذه. الملك الآن نسي كل شيء، اهم شيء عنده ان يموت الغلام وأصبح تفكيره اقتل الغلام ثم أفعل بعد هذا ما أفعل، فجمع الملك الناس في صعيد واحد، والناس كلهم مجتمعون ينظرون، والملك يأخذ سهما من كنانة الغلام، ويريد ان يرمي بالسهم ثم يقول قبل ان يرمي بالسهم: بسم الله رب الغلام، ثم يرمي بالسهم فيأتي السهم على صدر الغلام ويسيل الدم ثم يموت الغلام. فلما مات الغلام بدأ الناس كلهم يهللون: لا اله الا الله، لا اله الا الله رب الغلام، لا اله الا الله رب الغلام، فالتفت الملك ما الذي حدث؟ ما الذي جرى؟ انفجرت المدينة بالايمان، انطلق التوحيد، الملك استغرب من الامر، هذا الذي كان يخشاه، قال لجنوده: مروهم بالكفر والردة، فما استطاعوا، قال: احفروا لهم الاخاديد والحفر، حفروا لهم الحفر وأشعلوا فيها النيران، اخذوا الناس واحدا واحدا: ترتد عن دينك او نرميك في النار؟ هو يرمي بنفسه في النار، كلما جاءوا لواحد يرمونه في النار وهو يقول: لا اله الا الله رب الغلام، لا اله الا الله رب الغلام، آمنت بالله رب الغلام، والملك يشاهد ويتعجب، شعبه كله يحترق، اي ايمان هذا؟ اي دين هذا؟ اي عقيدة تلك؟ حتى جاءوا بامرأة تحمل رضيعا صغيرا، قالوا لها: ترتدين عن دينك والا رميناك في النار؟ قالت: ارموني في النار ولكن اتركوا الغلام يعيش، قالوا: بل نرميه معك، فترددت المرأة، هذا الغلام ترمونه معي في النار، ما ذنبه؟ ما جريمته؟ تخيل.. طفل صغير ترددت المرأة وكأنها ارادت الرجوع، ولكن الله انطق الغلام في المهد فقال: يا اماه اثبتي فإنك على الحق، فرمت بنفسها ورضيعها في النار (قتل اصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) كلهم شهود ينظرون الى الناس يحترقون: (وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والارض والله على كل شيء شهيد) «البروج: 8 ـ 9».

ذنوب كبيرة

اللواط

قد قص الله عز وجل علينا في كتابه العزيز قصة لوط في غير موضع ومن ذلك قوله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) أي من طين طبخ حتى صار كالآجر (منضود)، اي يتلو بعضه بعضا (مسومة) أي معلمة بعلامة تعرف بها انها ليست من حجارة أهل الدنيا (عند ربك) اي في خزائنه التي لا يتصرف في شيء منها الا بإذنه (وما هي من الظالمين ببعيد) ما هي من ظالمي هذه الأمة اذا فعلوا فعلهم ان يحل بهم ما حل بأولئك من العذاب.

ولهذا قال النبي ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم عمل قوم لوط» ولعن من فعل فعلهم ثلاثا فقال: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط» وقال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به، قال ابن عباس رضي الله عنه: ينظر أعلى بناء في القرية فيلقى منه ثم يتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط.

وأجمع المسلمون على ان التلوط من الكبائر التي حرم الله لقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل انتم قوم عادون) أي مجاوزون من الحلال الى الحرام.

وقال تعالى في آية أخرى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين) وكان اسم قريتهم سدوم، وكان أهلها يعملون الخبائث التي ذكرها الله سبحانه في كتابه، كانوا يأتون الذكران من العالمين في ادبارهم، ويتضارطون في انديتهم، مع أشياء أخرى كانوا يعملونها من المنكرات.

غزوات الرسول

غزوة الخندق (الأحزاب)

حصن رسول الله ﷺ المدينة احسن تحصين، فأضحت منيعة من سائر جوانبها، واستكمل الخندق احكام التحصين، وبعث مسلمة بن اسلم في 200 رجل، وزيد بن حارثة في 300 رجل يحرسون المدينة ويكبرون، فالدلائل تشير الى ان بني قريظة يريدون الاغارة على المدينة بتحريض من حيي بن اخطب اليهودي.

واقبلت قريش ومن معها، فلما نظروا الى الخندق قالوا: والله ان هذه لمكيدة وما كانت العرب تكيدها، وصار المشركون يتناوبون ويناوشون اصحاب رسول الله ﷺ ويقتربون منهم، ولم يكن بينهم حرب الا الرمي بالنبل والحجارة، واقبل نوفل بن عبدالله بن المغيرة على فرس واراد اجتياز الخندق بفرسه فوقع في الخندق هو وفرسه واندقت عنقه وتحطم مع فرسه وضربه علي رضي الله عنه بالسيف فقضى عليه، ونقضت بنو قريظة العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، اخبره بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «الله اكبر ابشروا يا معشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه».

ثم تقنع ﷺ بثوبه، واضطجع ومكث طويلا، فاشتد على المسلمين البلاء والخوف حين رأوه ﷺ اضطع، ثم رفع رأسه فقال: «أبشروا بفتح الله ونصره».

وعاش المسلمون في ظروف حرجة، فالخطوب تحاصرهم من كل جهة، فهذه قريش ومن معها يحاصرون المدينة، واليهود من بني قريظة ينقضون العهد مع رسول الله ﷺ، والمنافقون في الصف الداخلي يبثون نفاقهم وارجافهم وتوهينهم للعزائم واضعافهم للهمم، امام هذا الواقع عظم البلاء على المسلمين وزاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر، واستطاع عمرو بن عبد ود وهو من فرسان قريش ان يقتحم الخندق واخذ ينادي بأعلى صوته: من يبارز؟ فقال علي رضي الله عنه: انا له يا نبي الله.

فقال ﷺ: «اجلس انه عمرو بن عبد ود».

وكرر عمرو النداء وقال مستهزئا: جنتكم التي تزعمون انه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون لي رجلا، فقام علي رضي الله عنه فقال: انا له يا رسول الله، فقال ﷺ: انه عمرو، قال علي: وان كان عمرا! فأذن له رسول الله ﷺ واعطاه سيفه ذا الفقار والبسه درعه وعممه بعمامته، وقال: اللهم اعنه عليه، الهي اخذت عبيدة مني يوم بدر وحمزة يوم احد وهذا اخي وابن عمي فلا تذرني فردا وانت خير الوارثين، فتقدم علي رضي الله عنه فقال عمرو: من انت؟ قال: انا علي بن ابي طالب.

عمرو: ما احب ان اقتلك، فإن اباك كان لي صديقا وكنت له نديما فإني اكره ان أسيل دمك.

فقال علي: ولكني والله احب ان اقتلك، وما اكره ان اريق دمك.

فغضب عمرو واخذته الحمية واستعد للنزال، ونزل عن فرسه وسل سيفه، واقبل علي رضي الله عنه فضربه على عاتقه فسقط عمرو مضرجا بدمه، وكبر المسلمون، فلما سمع الرسول ﷺ التكبير عرف ان عليا قتل عمرا.

● الشيخ سيد الرفاعي